زعيمان

للأستاذ محمود الخفيف

هما أحمد عرابي وإبراهام لنكولن ، يجمع بينهما في مجال الزعامة أن كليهما كانت الحرية متصلة بطبعه ، وأن كليهما اضطلع بقضية كبرى في قومه خلد بها اسمه ، ويجمع بينهما في هذا المقال وفي مقال في العدد السالف من « الرسالة » بنفس العنوان ما تفضل به من حديث عنهما ، أو بالأحرى عن كتابيّ فيهما ، الناقد الكبير الأستاذ العقاد .

ولقد أثار ما كتب الأستاذ الجليل أعظم اهتمامي ، فإني لأنزله من نفسي منزلة الأستاذ ، تلك المنزلة التي ينزله إياها بالحق جمهور القارئين في العالم العربي ، وأحرص على الإفادة من كل ما يكتب في الأدب ، فكيف إذا كان ما يكتب متصلا بكتابين أخرجتهما ؟

على أن اهتمامي بما قال عن الزعيمين كان أعظم مما ذكره متفضلا عن الكتابين ، وللأستاذ الكبير عظيم شكري على ما تفضل به علي من ثناء أرجو أن أظل له عاملا .

وإن الحديث عن هذين الرجلين لفرصة يجب ألا تفوت ، فقد أردت بكتابي عن أولهما الدفاع عنه لاعتقادي أنه ظلم ، وأن ظلمه مما يشين هذا الجيل الذي أصاب حظاً غير قليل من الثقافة ؛ وأردت بكتابي عن ثانيهما أن أجعل منه ، وهو الشخصية العالمية المحبوبة ، قدوة لشبابنا ، ومثلا لسادتنا وكبرائنا ... وإن الشباب والكهول في كل أمة متمدنة ليقرأون عشرات الكتب في سيرته ويجدون فيه للعصامية المثل الأعلى !

أما من عرابي ، فحسبي مما بلغت بدفاعي عنه أن أقول في غير زهو أو فخر : أنه ما من قارئ لكتابي حدثني عنه إلا آمن لي ، ورأى في عرابي ما كان من قبل ينكره أو يأخذه في كثير من الشك والتردد ، وهو أنه زعيم قوي مخلص لعقيدته فذ في وطنيته ؛ وحسب عرابي أن يشهد له بالإخلاص والوطنية من زعماء الكتاب في جيلنا هذا أستاذنا الجليل صاحب « الرسالة » ، الذي شرفني بجعل عملي في الدفاع عن عرابي عمل إميل زولا في الدفاع عن دريفوس ، ثم أستاذنا الكبير العقاد الذي نفى عن عرابي في كلمته الأخيرة ما اتهمه به المفترون ظلماً والجاهلون ، والذي تفضل فقال عن كتابي : « إنه يعد في بابه قليل النظير » .

ومما أطيب به نفساً أن أجد رأي الناس عن عرابي قد أخذ يتغير ، فالصحف والمجلات تتحدث عنه اليوم على أنه زعيمنا الأول ، ويشيع فيما تكتب عنه كثير من التحمس له ، والمثقفون في ندواتهم يذكرونه بالخير ويأسفون على ما لحقه فيما سلف من ظلم ؛ فإذا كان مرد هذا أو بعضه إلى ذلك الدفاع الذي دافعت به عنه ، فأي اغتباط ذلك الذي تشعر به نفسي ، ومعاذ الله أن أقصد بهذا إلى شيء من الفخر ، وإنما هو شعور الراحة في نفس من يوقن أنه أنصف رجلا قضى نحبه مظلوماً وقد أحسن إلى بلاده ، وأنه أول من تصدى إلى هذا الإنصاف . وليغفر لي القارئ ما قد يجده في كلامي هذا مما يشبه الزهو .

***

وأما عن لنكولن ، فقد أخذ الكاتب الكبير على كتابي مآخذ قرأتها في كثير من الترحيب والاطمئنان ، فالعقاد من يصدر في النقد عن أستاذية توجب هذا الاطمئنان ، وتوجب معه الاهتمام والحرص على الانتفاع من جانب كل مؤلف وإن علا كعبه في التأليف ؛ وأنا بالضرورة أولى بالاهتمام والحرص على الانتفاع ، ومقامي في التأليف مقام المبتدئ ؛ غير أني أحس في بعض ما ذكر الناقد الفاضل ما لا ترتاح إليه نفسي ، وأؤكد للأستاذ الكبير أني أذكر ذلك عن إخلاص وصدق رغبة في الفهم والتعلم ، وهي على أية حال فرصة طيبة لأعمم رأيي لعله يتفضل بإرشادي إلى موضع الخطأ فيما أقول ، وفرصة طيبة للحديث عن لنكولن لعل في الحديث عنه ما فيه للقارئ بعض الفائدة ...

أخذ الأستاذ على كتابي « أنه ليس فيه تعريف كاف بأسلاف لنكولن من جانب أبيه وأمه » ؛ وهذا الذي يأخذه على الأستاذ حق لا مرية فيه ، ولكن كيف السبيل إلى معرفة هؤلاء الأسلاف ؟ هذا هو موضع التساؤل بيني وبين الأستاذ الجليل .

لقد عرف لنكولن أول ما عرف نجاراً ابن نجار أمي ، وولد في كوخ وسط الأحراج والأدغال البرية بعيداً عن دنيا الحضارة ، ولم يحدثه أبوه عن أسلافه إلا قليلا ، ومرد ذلك إلى بيئته وجهله ، وكان حديث أمه أقل لما أحاط بسيرتها من ملابسات ذكرتها بجوضعها في الكتاب ، نقلا عن لنكولن ، إذ أفضى بها ذات مرة إلى صديقه هرندن ولم يعد إليها أبداً ، حتى لقد كانت إذاعتها على لسان صديقه مثار جدل وضجة في الولايات المتحدة كلها .

ولم يتحدث لنكولن نفسه عن أسلافه إلا قليلا ، لأنه لم يكن يعرف عنهم إلا القليل ؛ ولقد كان يقتضب الحديث عنهم اقتضاباً كأنه يكرهه ، بينما يفيض إذا تحدث عن نشأته فى بيئته الأولى .

لهذا حار كتاب حياته فى معرفة أسلافه ، وتحت يدى أكثر من عشر تراجم له ومن بينها كتاب إميل لدوج الذى عرف باستيعابه كل شىء ، وأهم منه كتاب صديقه وزميله فى المحاماة هرندن الذى كان أعلم الناس به ، وهو الذى اعتمد عليه لدوج وغيره ، وهؤلاء جميعاً لم يذكروا عن أسلافه إلا القليل وما لهم فى ذلك حيلة ...

افتتح هرندن الفصل الأول من كتابه بقوله : « لم يكن لدى مستر لنكولن عادة ما بقوله إذا تحدث عن نفسه وعن آبائه وتاريخ أسرته قبل مجيئهم إلى إنديانا أكثر من تلك الحقيقة ، وهى أنه ولد فى الثانى عشر من فبراير سنة ١٨٠٩ فى ناحية هاردن بكنتكى ؛ وكان إذا تحدث عن هذا الموضوع ، وقليلا ما تحدث ، يفعل ذلك فى كثير من التردد والتحفظ » ؛ وأورد هرندن بعد ذلك بقليل قول لنكولن لأحد أصدقائه فيما بعد ، وكان يسعى لكتابة تاريخ حياته : « لما ذا تعنى نفسك يا صاحبى سكربس ؟ إنه لمن أكبر الحمق أن تحاول أن تجعل شيئاً ذا بال فى شخصى وفى حياتى الأولى . إنك لتستطيع أن تحصرها فى جملة ، وتجد هذه الجملة فى مرثية جراى وهى « سيرة الفقراء القصيرة البسيطة » .

وأنا أرجو من أستاذنا العقاد ، وهو أطول منى باعاً وأكثر اطلاعاً ، أن يرشدنى إلى ما أقف منه على أسلاف لنكولن ؛ وإنى لشديد الحرص على إرشاده ، ذلك أن الأستاذ الجليل قد عقب على ذلك الذى أخذه على مما يتصل بأولئك الأسلاف بقوله : « ولا تتم العبرة من تاريخ لنكولن إذا لم تكن نشأته وارتقاؤه إلى رئاسة الجمهورية ، وحقائق مصرعه موضع اهتمام خاص يفوق كل اهتمام بغيرها من الموضوعات » ؛ ولقد تشعر هذه العبارة من لم يقرأ كتابى بأنى لم أهتم بنشأته وارتقائه إلى رياسة الجمهورية ، والواقع أن نشأته وارتقاءه إلى رياسة الجمهورية استغرقت من هذا الكتاب الذى يقع فى خمسين وثلثمائة صفحة كبيرة نحو ثلثيه ، فقد تحدثت حديثاً طويلا عن حياته وهو صبى فى الغابة ، ثم وصفت أخلاقه شاباً يعمل فى حانوت ، وقد خرج من الغابة ، ويعمل فى البريد ، وفى تخطيط الأرض ، ثم انتقلت إلى اشتغاله بالمحاماة ، وإلى تدخله فى السياسة ، واختياره عضواً فى الكونجرس ، وما زلت أتتبع فى تفصيل ارتقاءه فى المحاماة والسياسة ، واهتمامه بمسألة الرق ، وردوده على خصومه ، وما كان من الأحوال السياسية المحيطة به ليفهم سيرته حق الفهم من لا يلم بتاريخ الولايات المتحدة ، حتى بلغت ترشيحه للرياسة ، فبينت فى إسهاب كيف رشح ، ومن نافسه ، وما قيمة منافسيه ، ثم شرحت المعركة الانتخابية فى استيعاب لا أذكر له نظيراً فى كتاب واحد مما قرأت ، وأخيراً بلغت بسيرته ارتقاءه للرياسة ، وأعتقد أنى وفيت ذلك جميعاً مع جهلى بتاريخ أسلافه ، ذلك الجهل الذى لم تكن لى ولا لغيرى فيه حيلة ...

وثمة مسألة أخرى أخاصم ناقدى الكبير فيها خصاماً شديداً ، وهى أنه ذكر عن كتابى أنه « ليس فيه إلمام كاف بسلسلة المصادفات المتوالية التى ساقته إلى رياسة الجمهورية » ؛ وليسمح لى الأستاذ الكبير أن أقول له — وهو العليم الذى لا يُعلَّم — أن المصادفات إذا كان لها شأن فى حياة بعض العظماء ، فإن لنكولن أحد من تخلو حياتهم من المصادفات خلواً تاماً . ولعله أوضح مثل فى هذا الصدد ، وإلا فأى عصامية أقوى من عصاميته ؟ وما عمل المصادفات فى حياة نجار ابن نجار شق طريقه فى الحياة كما كان يشق طريقه بين أحراج الغابة ، فقيراً لا جاه له ولا نسب يعتمد عليه ، ومازال يتكئ على نفسه حتى أصبح رئيس الولايات المتحدة ؟ كلا ، ليس للمصادفات دخل فى حياة لنكولن ، بل لقد كانت تعترض له أشد الصعاب ، وقد كان يخفق مرات فيما يسعى إليه ، ولقد نافسه فى حزبه خصوم شداد ، وكاد يتغلب عليه سيوارد أقوى خصومه ، فيظفر بأغلبية المؤتمرين من الحزب الجمهورى الذين أرادوا ترشيح رجل من الحزب للرياسة ؛ ولقد كان هو ينتظر الفشل ويتحدث به إلى هرندن ؛ وإذا كانت المسألة مسألة اختيار يقوم على الموازنة والخصومة ، فأى دخل فى ذلك للمصادفة التى تقوم على الحظ ؟ ذلك — كما أسلفت — ما أخاصم فيه ناقدى الفاضل ، وكنت أحب أن يضرب مثلا لأثر المصادفة فى حياة لنكولن . والحق أنى حرت فى قوله « وقد كان من الجائز جداً ألا يصل إلى رئاسة الجمهورية ، لأنه لم ينجح قط فى انتخاب أو ترشيح إلا كان للمصادفة فى اللحظة الأخيرة أكبر الأثر فى

هذا النجاح » . ولكم يسرني ويسر قراء الأستاذ الكبير أن يضرب لنا بعض الأمثلة لما يذكر .

وذكر الأستاذ الفاضل عن الكتاب قوله : « وليس فيه تعليق على مقتله ، ولا عن المتآمرين عليه » ؛ والحق أنها جريمة غير محددة الدوافع أشبه بجريمة أبي لؤلؤة في ضيق نطاقها المعلوم . وأما بطل الجريمة فلم يذكر شيئاً ، ولم يصل الفحص فيها إلا إلى ثلاثة أشخاص من شركائه ؛ وخير ما يقال عن ذلك القاتل ما ذكره الأستاذ العقاد نفسه حين يقول : « وجملة ما يقال عنه أنه ممثل فاشل أراد أن يعوض فشله في أدواره المسرحية بهذا الدور من أدوار المغامرات المعهودة في تاريخ البلاد الأمريكية ، ولولا عوارض شخصية في طبيعة هذا المفتون لما وقع الحادث على الإطلاق » ... وأظن أنه لا محل بعد هذا لأن يؤخذ على الكتاب أن « ليس فيه تعليق على مقتله ولا عن المتآمرين عليه » فضلا عما أوجبه الأستاذ من اهتمام خاص بحقائق مصرعه فيما أوجب من أمور ذكر أن العبرة من تاريخه لا تتم إلا بها .

بقيت مسألة واحدة ، وهي أن الأستاذ الجليل يرى أني — كما يبدو لأول وهلة من كتابي — موفق في تحقيق معلوماتي ووزن أبطالي ، إلا أني حين أحتاج إلى الميزان المشترك بين أبطال متعددين أضطرب في الميزان بعض الاضطراب ، وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكني لا أستطيع الجزم بصحته كما لا أستطيع الجزم بنفيه ؛ وذلك لأني لست أذكر أني عنيت بالميزان المشترك ، فقد كنت أصف كل شخص وحده ، ولم أصدر حكما على لنكولن بعد الموازنة بينه وبين غيره ، ولهذا لم تتضح في ذهني عبارة الأستاذ الناقد : « ومن أمثلة ذلك في تاريخ لنكولن أن كلامه عن بطله صحيح ، وأن كلامه عن دوجلاس مزاحمه صحيح ، ولكنه إذا عرض الرجلين على الميزان المشترك لم يبلغ من الدقة ما يبلغه من وزن كل منهما على انفراد » .

وبعد ، فإني أعود فأقدم للأستاذ الجليل عظيم شكري على فضله ، وأعبر له عن بالغ سروري واهتمامي بنقده ، وشديد حرصي على الإفادة من إرشاده ونصحه ، فذلك دأبي معه في كل ما أقرأ له منذ نشأتي ...

المنصف

مزاهر :

أين راحـــت ؟

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

— ١ —

« إلى راهبة الضحى السمراء
في أغـلالها الجديدة ... »

لم أكد أسبح في وادي شذاها
وأذل العطر من عاني ذراها
وأصيد السـحر ، لو كانت رباها
هاجمات بين ألفاف الأبد
كل ظل حول جنبيها رصـد ..

لم أكد .. والكأس في كفي صاد
وعلى أغصانهـا الخمر تنادى
حانة فيها ... وأخرى في فؤادي
أقبلي ... والكأس كادت تتقد
ومددت الكف .. لكن لم أكد

لم أكد .. والنهر نشوان الضفاف
وخطا الزورق أوست بالطـاف
والهوى ما بين عب وارتشاف
حائر السـكرة عات مستبد
وهي ركن توارى في جسـد

لم أكد .. حتى تلفت إليهـا
فإذا النار صـلاة في يديها
وإذا وعـد هفا من حاجبيها
فأرقت الكأس إعـياناً بقد
وارتقبت الوعد ... لكن لم تعد !!

محمود حسن اسماعيل